دراسات من إعجاز القرآن الكريم

تطوّر دلالة بعض ألفاظ اللغة والقرآن الكريم

بقلم

م.د. حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية (سابقا)

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا العمل بعنوان: تطور دلالة بعض ألفاظ اللغة والقرآن الكريم هو العمل الرابع في سلسلة: دراسات في إعجاز القرآن الكريم، الأول بعنوان: نظرية لغوية جديدة في إعجاز القرآن الكريم. والثاني بعنوان: محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله وسراج منير. والثالث بعنوان: نظم عقود المعاني وبناء أهرامها، وهذا العمل الرابع بعنوان: تطور دلالة بعض ألفاظ اللغة والقرآن الكريم. وفي التمهيد الموجز أود أن أتناول كون تراث اللغة العربية أقدم تراث للبشرية، وذلك بمفهوم فهمه وليس بشهادة ميلاده. إن تراث اللغة العربية مفهوم كله، ما يعود منه إلى ألف وستمئة عام وما أكتبه الآن في هذه السطور، لأن تراث هذه اللغة يكتب في لغة القرآن الكريم الذي تكفل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدين. وفي حفظ الله تعالى القرآن الكريم حفظ للغة العربية وحفظ لتراثها. وكذلك أود أن أتناول في التمهيد إلى تطور اللغة المطرد وذلك بتحولها دائماً من المستوى الحسي إلى المستوى المعنوي.

وبشأن هذا العمل فإنه يتألف من شقين اثنين، وكل شق له عنوان يخصه. الشق الأول بعنوان: تطور دلالة ألفاظ اللغة والقرآن الكريم. وهذا الشق من الدراسة يتعامل مع الأصول اللغوية وما تم اشتقاقه منها من زاوية الاستعمال اللغوي،

والمعنوي، في كلٍّ من اللغة والقرآن الكريم، وقد تبيّن أنّ القرآن الكريم يصل في استعماله لهذا النوع من المستقات إلى المستويات الرفيعة، والأخيرة.

والشق الآخر بعنوان: تطور دلالة ألفاظ القرآن الكريم، وهذا الشق الآخر من الدراسة يتعامل مع عدد قليل من المشتقات اللغوية، لأنّ القرآن الكريم يظهر في استعماله للمشتقات تجاوزه لأعلى المستويات التي وصلت إليها اللغة. فعلى سبيل المثال تشترك اللغة والقرآن الكريم في استعمال لفظ: "طائر" و "التطير"، ويزيد القرآن الكريم بإفادة لفظة: "طائر" معنى كتاب الأعمال الحسنة والسيئة، وتوظيف لفظة "طائر" و "التطير" فيما يتسم بالانسياب بالمشاكلة ومراعاة التنظير فيكون لفظ "الطائر" وجهٌ يتجه إلى الكافر، وهذا الوجه من المعنى غير مقصود، إنما المقصود المعنى الإسلامي فمعنى: "طائر" فعلُ الله تعالى، وقدره ومشيئته. ويكون للفظة: "التطير" لدى وجهان، الوجه الأول غير مقصود وهو معنى التشاؤم بالمفهوم الجاهلي، إنما المقصود المعنى الإسلامي، فلا يقع في هذا الكون إلا ما شاء الله تعالى وحده لا شريك له.

والمثال الثاني من هذا الشق الآخر من الدراسة يتعلق بلفظة: "مثل" إنّ كلاً من القرآن الكريم واللغة يستعمل لفظة "مثل" بمعنى القصة، والعبرة، والآية. ويزيد القرآن الكريم باستعمال لفظة: "مثل" في سورة

الحجّ وفي سورة النّور بأدائه معنى النّبأ العظيم والحادث الجلل. فالنّبأ العظيم والحادث الجلل في سورة الحجّ الإشراك مع الله تعالى العليم القدير الآلهة العاجزة عن خلق ذبابة واحدة، أو استرداد ما تسرقه هذه الذبابة الحقيرة. والنّبأ العظيم في سورة النّور حادثة الإفك في حقّ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها، الّتي جاءت تبرئتها في السّورة الكريمة في عشر آيات كريمات.

والمثال الثّالث والأخير يتعلّق بهذا القول الّذي جاء في سورة الفرقان وحدها مرّتين اثنتين: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ إنّ القرآن الكريم يستعمل في المرّة الأولى القول: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ على لسان الكافرين يوم القيامة في مخاطبتهم الملائكة العذاب باستعمالهم هذا القول في طرد الأذى عنهم في الحياة الدّنيا في العصر الجاهليّ. ويستعمل القرآن الكريم هذا القول استعمالاً جديداً لم تُرَقْ إليه اللّغة حينما يستعمل الملاء العذب والماء المِلْح هذا القول: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وبذلك يستعمل كلّ ماء إلى رُقْيٍ أذى الآخر عنه. وهكذا أنكلم الجماد.

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل، ويتقبّله، ويمنح له القبول بين عباده، ويثيب عليه. آمين ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

صبيحة يوم الأربعاء
٢٩/١٢/١٤٤٦هـ الموافق
٢٥/٦/٢٠٢٥م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د. حسن محمّد باجودة
أستاذ اللّغة واستاذ القرآنيّة البيانيّة (سابقاً)
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

التمهيد

التمهيد:

أ - اللغة العربية وتراثها في شباب دائم:

اللغة كائن حي، وكأنه مخلوق أو إنسان، يمر خلال حياته بكل المراحل التي يمر بها الكائن الحي، من ولادة، وطفولة، وشباب، وكمال، وصحة، واعتدال، وشيخوخة، واكتهال، وربما تحضره أسباب الوفاة، بعد ضعف واختلال. إن هذه هي سنة الله تعالى بشأن كل لغات الإنسانية.

وتنفرد اللغة العربية بإرادة الله تعالى، بعجيبتين اثنتين. وإحدى العجيبتين تتعلق بمرحلة الولادة، وأخرى العجيبتين تتعلق بمرحلة شباب اللغة العربية. إن اللغة العربية في شباب دائم إلى يوم القيامة. وهذا تفسير للعجيبتين.

أما العجيبة الأولى المتعلقة بمرحلة الولادة فالمعروف أن اللغة العربية لا يُعرف لها أول جرة أو يقين تاريخ ولادة، ولا تُعرف لها شهرة ولادة ولا مهد. بل إنا لا نعرف للغة العربية إلا فتوة الصبا، وريعان الشباب. وقد تجلى هذا الشباب الفتي، فيما وصل إلينا من تراث نثر قبل الإسلام من شعر، ونثر. وكلما اقتربنا من بزوغ فجر الإسلام ازداد الشعر والنثر اكتمالا ونضجا، وازداد اطمئناننا إلى صحة هذا التراث وصدقه.

وفي المقابل يقل اطمئناننا إلى صحة هذا التراث

وثقتنا بصدقه، كلما عدنا إلى الوراء، وابتعدنا من وقت بزوغ فجر الإسلام، وكلما عدنا إلى الوراء بمئة عام، أو مئتين وخمسين عامًا، وركنا لا نعود إلى الوراء بفترة مئتي عام. مثلاً - بحال من الأحوال.

ووراء ذلك نحن نفصل بين اطمئناننا إلى صحة نسبة هذا التراث الذي يعود إلى تلك الفترات السحيقة، وبين اطمئناننا إلى صحة هذه اللغة.

إن كل التراث الذي ينسب إلى تلك الفترات هو صحيح من الوجهة اللغوية، لأن الذين ألفوه إنما نسجوه على غرار التراث الصحيح النسبة إلى أصحابه، وإلى ذلك الزمن، والمراد أن كل التراث الذي وصلنا وقد نسب إلى فترات ما قبل الإسلام، القريبة والبعيدة، هو صحيح لغويًا. وقد اكتسب شبابه من العصبية الأخرى المتعلقة هذه المرة باللغة العربية.

إن العصبة الأخرى المتعلقة باللغة العربية، تتمثل في الشباب الدائم للغة العربية، ولتراثها اللغوي، إلى يوم القيامة، وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزله الله تعالى معجزة كبرى لمحمد صلى الله عليه وسلم. وقد تكفل الله تعالى وحده لا شريك له بحفظ القرآن الكريم وحده، ولم يتكفل جل وعلا بحفظ أي من الكتب السماوية السابقة.

وفي حفظ الله تعالى للقرآن الكريم حفظ للغة العربية التي نزل فيها، لغة، ونحوًا، وصرفًا، وتراثًا، نثرًا وشعرًا.

ومن حفظ الله تعالى للغة العربية حفظ لشبابها، فتراث اللغة العربية كله دائم الشباب.

وحيث إن تراث كل الأمم الأخرى لا يعدو، من لغة كتابة سماوية حفظه الله تعالى، فقد ثبت معناه أن كل اللغات الأخرى، غير اللغة العربية، تخضع لقانون الولادة والحياة والموت، وذلك في صيغة تراث تلك اللغات. ومن أجل عدم تكفل الله تعالى بحفظ أي من الكتب السماوية السابقة على القرآن الكريم، فإن كل تراث تلك اللغات قد تعرض للقديم منه جدا، للموت، فأصبحت كل تلك اللغات وتراثها من سكان القبور، وتأخذ اللغات اللاحقة زمنا، وتأخذ تراثها بالتأثير من ذات الطريق الذي سلكته اللغات السابقة التي ماتت ومات تراثها.

ومعروف أن قيمة اللغة بمقدار استيعابها، وأن قيمة التراث بمقدار فهمه. وقد تأكد أن كل تلك اللغات القديمة البائدة قد ماتت، وبالتالي قد مات تراثها، وسوف تلحق بها اللغات الأخرى تباعا، ويلحق معها تراثها.

ومن أجل عدم فهم تراث تلك اللغات نقول إنه تراث ميت، لغات ميتة، أو شبه ميتة بشأن اللغات اللاحقة. وإن مقياس التراث بمقدار فهمه. وبما أن تراث اللغة العربية القديم الذي يعود إلى ما يزيد على ألف وستمائة عام مفهوم تماما، كما يفهم تراث اللغة العربية اليوم، نثرا وشعرا، فإننا

بسبب فهم تراث اللغة العربية وحدها، القديم والحديث على حدّ سواء.. فإننا نقول: إنّ تراث اللغة العربية هو أقدم تراث البشرية بمقياس فنيه. فعلينا إنقاذ تراث البشرية بترجمة رائعه إلى اللغة العربية، لغة الخلود، لغة القرآن الكريم (1) الذي تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدين، فقال تعالى (2): ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

---

(1) قبل ستين عامًا حينما كنت أدرس في إنجلترا، كان أساتذة اللغة الإنجليزية يقولون: إننا لا نفهم لغة شكسبير إلا عن طريق المعاجم اللغوية التاريخية. حدث هذا بعد ثلاثمائة وخمسين عامًا من وفاة شكسبير. وبعد هذه الأربعمائة عام من وفاته، ازداد الجهل بلغته، فها هي ذي ابنتي ضحى حسن بجودة تنال درجة الدكتوراه من جامعة ليدز في تحليل من أعمال شكسبير، من غير المسرحيات. وقد أكدت لي ابنتي ضحى تقدم علماء اللغة الإنجليزية لغة شكسبير، بشكل أكبر، وها هي ذي مسرحياته تُعرّض في لغتها الأصلية، وفي لغة جديدة فيما يشبه الترجمة لهذه المسرحيات. هذا إلى التدخل في بعض الأعمال بالتغيير. فهذا روميو، مثلاً، يتزوج من جولييت!

(2) سورة الحجر 9

ب. تطوّر دلالة الألفاظ من المستوى الحسّي إلى المعنوي:

اللغة العربيّة إحدى اللغات السّاميّة، فهي تنتمي إلى هذه العائلة من اللغات. واللغات السّاميّة لغات اشتقاقيّة، بمعنى أنّ هناك أصلاً لغويّاً يسمّى المصدر، وهذا الأصل في اللغة العربيّة في رأي بعضهم هو المصدر، وفي رأي بعضهم الآخر هو الفعل. ومن هذا الأصل اللغوي تشتقّ الألفاظ لأداء المعاني المختلفة فيما يشبه تكوين العائلة أو الأسرة، حيث إنّ كلّ لفظة مشتقّة تشتمل على حروف الأصل. وهذا الاشتمال على حروف الأصل أفاد المعنى، فاللفظة المشتقّة تفيد حدثاً أو أكثر ومعنيين اثنين. المعنى الجديد الذي صيغ اللفظ من أجله، والمعنى القديم الذي تفيده حروف الأصل الموجودة في كلّ لفظة مشتقّة.

ثمّ إنّ هذه الأصول الثلاثيّة في قوالب صوتيّة مطّردة، وكذلك تأتي الألفاظ المشتقّة، مهما يكن عددها، كاسم الفاعل من الثلاثي مثلاً. وقد أفادت هذه القوالب الصوتيّة اللغات الاشتقاقيّة صوتاً، كما أفادها مجيء حروف الأصل في كلّ لفظة مشتقّة من الوجهة المعنويّة.

يقتضي علينا أن نعرف أنّ اللغة العربيّة، وهي إحدى اللغات السّاميّة، قد تفوّقت على كلّ اللغات السّاميّة، بما فيها اللغة السّاميّة الأمّ.

ومن أهمّ ما نهضت به اللغة العربيّة، وتفوّقت فيه، ظاهرة الاشتقاق، وظاهرة الإعراب.

وهناك أسباب مختلفة جعلت اللغة العربيّة

تتفوّق قديمًا على كلّ اللغات السّاميّة، منطلقةً الجزيرة العربيّة، فهي أكبر شبه جزيرة في الدّنيا، فحقّقت رغبة العرب بيئيًّا وحدويًّا. وقد كان العرب منعزلين عن غيرهم أو شبه منعزلين الأزمنة المديدة، ولكنّهم لم يكونوا منعزلين عن بعضهم داخل الجزيرة العربيّة، فقد تأثّروا مع بقيّة جيرانهم، وقد بقيت من هذه الأواصر المواسم الدينيّة، ومن أهمّها الحجّ والعمرة، على ملّة إبراهيم عليه السّلام، كما بقيت من هذه الأواصر أسواقهم الأدبيّة، ابتداءً بسوق عكاظ. وكانت هذه الأسواق تجاريّة من ناحية، وثقافيّة من ناحية أخرى.

ولأنّ العرب أمّة أمّيّة فقد اعتمدوا على الأذن بأكثر من العين، وعلى السّماع بأكثر من القراءة والكتابة. وبسبب هذه الأمّيّة من ناحية، وفطنة العرب بلغتهم، فهي لغة كلامهم، وهي لغة أدبهم شعرًا ونثرًا، وبسبب تخصّصهم في فنّ القول وحده، كان العرب أئمّة البيان، وفرسان الفصاحة، وبذلك نهضت اللّغة العربيّة نهضة سريعة واسعة. ومن أجل كلّ هذه العوامل لا نعرف للّغة العربيّة طفولة، إنّما نجدها في عنفوان شبابها شعرًا ونثرًا. وقد نزل القرآن الكريم مؤكّدًا هذه السّيادة اللّغويّة.

إنّ القرآن الكريم نزل من اللّغة العربيّة فتعزّزت

مكانتها. وإنّ حفظ الله تعالى للقرآن الكريم حفظٌ للغة العربية، وحفظ لتراثها. إنّ اللغة العربية وتراثها في شباب دائم. وإنّ تراث اللغة العربية اللغوي مفهوم دائماً، يستوي في ذلك قديمه وحديثه.

ثم إنّ اللغة العربية كائنٌ حيّ، تنشأ وتحيا شأن كل لغات الإنسانية. وفي ضوء مظاهر هذه الحياة تطوّر دلالة الألفاظ.

إنّ تطوّر دلالة الألفاظ تتبيّنه في لغة الناس وفي لغة القرآن الكريم بدرجة أكبر.

وشأن تطوّر اللغة هي تتحوّل دائماً من المرحلة الحسّية إلى المرحلة المعنوية.

وشأن الألفاظ المنطوقة لدى كلّ من أمامها، وفي القرآن الكريم. نودّ أن ننوّه بنهوض الإسلام عمومًا، القرآن الكريم خصوصًا، بهذا التطوّر من المستوى الحسّي إلى المستوى المعنوي، بحيث إنّا نطلق على هذا المستوى الثاني بأنّه مستوى التطوّر المعنوي سلفًا، أو الاصطلاحي، أو الشرعي.

ونودّ أن نضرب دليلاً على هذا التطوّر اللغوي بالألفاظ الّتي دلّت على أركان الإسلام الأربعة بعد الشهادتين، وهذه الألفاظ هي الصلاة، والزكاة، والصوم، والحجّ، ويلحق بالحجّ العمرة.

إنّ الصلاة في اللغة الدعاء (١) وإنّ الصلاة

---

(١) الصاحبي ٨٤

هي الرّكن الثّاني من أركان الإسلام. وإنّ الدّعاء من مقوّمات الصّلاة.

والزّكاة في اللّغة النّماء (١) وإنّ الزّكاة في الشّرع الرّكن الثّالث من أركان الإسلام. ومن مقوّمات الزّكاة البَرَكة والنّماء.

والصّيام في اللّغة الإمساك (٢) والصّيام في الشّرع الرّكن الرّابع من أركان الإسلام. والصّيام الإمساك عن كلّ المفطرات نهارًا من طلوع الفجر الصّادق إلى غروب الشّمس.

والحجّ في اللّغة القصد (٣) بالزّيارة (٤) والحجّ في الشّرع قصد بيت الله تعالى الحرام (٥) وهو الرّكن الخامس من أركان الإسلام.

والاعتمار والعُمْرَة: القصد المخصوص بالبيت الحرام (٦) وهكذا.

وبذلك يتبيّن من هذه الألفاظ السّابقة أنّها انتقلت وتطوّرت وتحوّلت من المستوى اللّغويّ إلى المستوى الشّرعيّ، وهي رمز لغيرها من الألفاظ الّتي

---

(١) الصّاحبي في فقه اللّغة ٨٦

(٢) الصّاحبي ٨٥

(٣) الصّاحبي ٨٦

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: "حجج" ١/ ١٤١

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني "حجج" ١/ ١٤١

(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: "عمر" ٢/ ٤٥١

تحوّلت من المستوى الحسّيّ، إلى المستوى المعنويّ.

ونحن بشأن هذا المظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم بعنوان: تطوّر دلالة بعض ألفاظ اللغة والقرآن الكريم. سنتحدّث بإذن الله تعالى في حقلين اثنين، وكلّ حقل يمثّل مستوىً رفيعاً من التطوّر الدلاليّ. المستوى الأوّل بعنوان: تطوّر دلالة ألفاظ اللغة والقرآن الكريم؛ والمستوى الثاني بعنوان: تطوّر دلالة بعض ألفاظ القرآن الكريم.

فلنبدأ، مستعينين بالله تعالى بالحديث عن المستوى الأوّل.

أطروحة

تطوّر دلالة ألفاظ اللغة والقرآن الكريم

١- الغائط والتيمم:

قال تعالى (١) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا. وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم. إن الله كان عفوا غفورا﴾

الآية الكريمة من سورة النساء من الأحكام. وهي تنادي الذين آمنوا، لأنهم هم الذين يستفيدون من هدي القرآن الكريم والإسلام، وتنهاهم عن مجرد الاقتراب من أداء الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما يقولون. والآية الكريمة متعلقة بتدرج الإسلام في الأحكام، وتدرجه الحكيم في فرض الأحكام بشأن الآثام التي كان يحبها العرب، الذين تعهد بجاهلية. وتحريم الخمر مر بثلاث مراحل. المرحلة الأولى في قوله تعالى من سورة البقرة (٢) ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ الآية والميسر: القمار (٣) وبعد نزول الآية الكريمة قلل العرب من شرب الخمر. ثم جاءت المرحلة الثانية من مراحل تحريم الخمر، ونزلت في الآية الكريمة التي نحن بصددها. فحصر العرب شربة الخمر في غير أوقات الصلوات. ثم جاءت المرحلة الثالثة والأخيرة في قوله تعالى في سورة المائدة (٤) ﴿يا أيها

---

(١) سورة النساء ٤٣
(٢) سورة البقرة ٢١٩
(٣) البحر المحيط ٢/١٥٤
(٤) سورة المائدة ٩٠ و ٩١

الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ وحينما قيل لهم: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ قالوا: انتهينا انتهينا (١)

وإن القول في آية سورة النساء: ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ خير تعريف للسكران. أما في تعريف الصحاح فهو أنه يعلم ما يقول. وكذلك تنزه الآية الكريمة الجنب بالولوج أو (٢) عن الاقتراب من الصلاة إلا بعد الاغتسال من الجنابة. أما المريض، والمسافر، والذي جاء من الغائط وقضاء الحدث الأصغر والذي لامس النساء وجامعهن (٣) ولم يجد أي واحد من هؤلاء الماء فإن الله تعالى أباح لكل واحد من هؤلاء التيمم، أي قصد الصعيد الطيب وكل ما صعد على وجه الأرض فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات. وهو قول مالك. وقيل ما كان من جنس التراب كالرمل والزنجفر والنورة. وهذا مذهب أبي حنيفة. وقيل: هو التراب فقط. وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما (٤) والمراد بالطيب ههنا قيل: الحلال. وقيل: الذي ليس بنجس (٥)

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧١

(٢) الجملة ناقصة

(٣) انظر تفسير الطبري ٥/ ٦٣-٦٤ وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٣، ٢٧٤

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٩

(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٠

وتصف الآية الكريمة التيمم وتبين كيفيته:
هو فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه وبهذا يتبين أن التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به لأنه بدل منه في جميع أعضائه. بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع. ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال.
أحدها وهو مذهب الشافعي في الجديد أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين.
والقول الثاني: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين وهو قول الشافعي في القديم.
والثالث أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة (١)
وتبين الآية الكريمة أن الله تعالى كان عفواً غفوراً لمن شرب الخمر قبل التحريم، ولمن تيمم بسبب عدم وجود الماء، أو عدم القدرة على استعماله.

وهكذا يتبين تطور الدلالة بشأن كل من الغائط والتيمم.
فبشأن الغائط يقال: إن الغين والواو والطاء أصل صحيح يدل على اطمئنان وغور. ومنه ذلك الغائط، المطمئن من الأرض، والجمع غيطان وأغواط. وغوطة دمشق يقال إنها من هذا، كأنها أرض منخفضة (٢) وجعل الغائط كناية عن قضاء حاجة الإنسان، لأن العرب كانت تختار لقضاء حاجتها من الغيطان فكثر ذلك منها حتى غلب

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٨ وهذا قول الإمام أحمد.
(٢) معجم مقاييس اللغة: «غوط» ٤/ ٤٠٢

عليهم ذلك فقيل لكل من قضى حاجته التي كانت تُقضى من الغيطان حيث قضاها من الأرض مُنخفض. وجاء فلان من الغائط يُعنى به قضى حاجته التي كانت تُقضى في الغائط من الأرض (١)

وبشأن التيمم فإن التيمم في اللغة القصد. تقول العرب: تيممك الله بحفظه، أي قصدك (٢) والتيمم في الشرع من القول: لو فتيمموا أي تحروا وتعمدوا صعيداً طيباً (٣) أي تراباً حلالاً طاهراً غير نجس (٤)

ونود أن نشير إلى أن لفظ الغائط جاء مرتين اثنتين في القرآن الكريم. في سورة النساء (٥) وفي سورة المائدة (٦) وإلى أن جملة تيمموا جاءت ثلاث مرات في القرآن الكريم. في سورة البقرة (٧). بمعنى القصد المجرد، وفي سورة النساء (٨) وسورة المائدة (٩) بمعنى قصد التيمم للصلاة.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٦٥
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٩
(٣) تفسير الطبري ٥/ ٦٩
(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٠
(٥) سورة النساء ٤٣ (٦) سورة المائدة ٦
(٧) سورة البقرة ٢٦٧ (٨) سورة النساء ٤٣ (٩) سورة المائدة ٦

٢ - ﴿ عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾

سنتحدث، بإذن الله تعالى، عن مادة: «جرح» ومادة: «كلب» من القرآن الكريم.

ونبدأ بالحديث عن مادة «جرح»

إن مادة جرح جاءت في القرآن الكريم في أربعة مواضع في سبع سور كريمة. وبإذن الله تعالى سنتحدث عن هذه المواضع الأربعة كلها، لأنها تنظمها كلها معنى واحد مشترك يتذبذب بين الجرح بمعنى الكسب والعمل، وبين الجرح بمعنى شق الجلد وإسالة الدم. وإن منهجنا من دراسة هذه المواضع الأربعة ينطلق من الجرح بمعنى الكسب من الاتجاه نحو المعنى الآخر، وهو الجرح بمعنى شق الجلد وإسالة الدم.

١- وأول هذه المواضع الأربعة في سورة الأنعام. جاء في سورة الأنعام من الآية الكريمة المستثنى قوله تعالى: ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾

وبتفسير الآية الكريمة يتبين بإذن الله تعالى معنى جملة: ﴿ جرحتم ﴾ وحظها الكبير من الكسب، وحظها الأقل من جرح الجلد وإسالة الدم. معنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم. والله تعالى هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم (١) ومعنى التوفي في

(١) تفسير الطبري ٧/١٣٧

كلام العرب استيفاء العدد (١) وقد عُبِّر عن الموت والنوم بالتوفّي (٢) ومنه يقال للميت توفّاه الله (٣) وبناءً على ذلك يكون معنى القول: هو الذي يتوفّاكم بالليل كما يتوفّاكم بالنوم. وبذلك نكون بصدد نوعين من الموت أو الوفاة الوفاة الصغرى بالنوم والوفاة الكبرى بالموت. وإلى هاتين الوفاتين أشارت الآية الكريمة الثانية والأربعون من سورة الزمر. قال تعالى (٤): ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾

وآية سورة الأنعام تتحدث عن الليل من زاوية سلبيته المفرطة، وعن النهار من زاوية إيجابيته الطاغية. إن الله تعالى جعل لنا الليل سكينة ولباساً، وجعل لنا النهار نشاطاً ومعاشاً. هذه هي القاعدة. وما عدا ذلك فهو استثناء. والاستثناء لا يغير من القاعدة الأساسية.

وبقصد إظهار سلبية الليل في ذكرها جعلت الآية الكريمة النوم كمثابة الميتة الصغرى، فهنا مبيتة لاشتراك النائم والميت من عدم الحركة، وعدم المؤاخذة، وعدم الإحساس

---

(١) تفسير الطبري ٧/١٣٧

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني: "وفى" ٢/٦٨٥

(٣) معجم مقاييس اللغة: "وفى" ٦/١٢٩

(٤) سورة الزمر ٤٢

بكل من الزمان والمكان، وما إلى ذلك. وصنا مبتة مُنذرة بأن النوم يعقبه استيقاظ حتما بعين بإذن الله تعالى موعد النومة الكبرى، أعني الموت.

وبقصد إظهار إيجابية النهار من أوجه جعلت الآية الكريمة عمل المستيقظ، سواء كان خيرا أو شرا، وجعلت كسبه للخير أو الشر لفرط إيجابيته متجها من مستوى العمل والكسب كل من الخير والشر إلى كونه متجها إلى الكسب من جهة، والحمل من أوجه، بحيث إنه يدخل منطقة الشر أو يكاد يدخل، وصاحبه أو يكاد يجرح الجلد، ويسيل الدم.

وهكذا نتبين أننا أمام كفتين تمثل الأولى قمة السلبية حيث تتحول سلبية الليل إلى كونها وفاة أو كالوفاة، وتمثل الأخرى قمة الإيجابية، حيث تتحول إيجابية النهار إلى كونها شريرة، آثمة، تكاد تجرح الجلد، وتسيل الدم، أو تقوم بكل ذلك فعلا.

ويتبين أن جملة: «جرحتم» تفيد العمل والكسب، بأكثر مما تفيد شق الجلد وإسالة الدم.

ويلاحظ من الآية الكريمة وراء ذلك مجيء حرف العطف: «ثم» الذي يفيد الترتيب مع التراخي، ثلاث مرات.

والمقصود من حرف العطف هنا تنبيه الخلق إلى وجوب اغتنام فرصة إمهال الله تعالى لهم. إن الإمهال ليس إهمالا، فليعودوا إلى الله تعالى وليتوبوا توبة نصوحا.

ويلاحظ كذلك عدم مجيء حرف العطف: «ثم» بشأن قضاء الأجل، واستيفاء مدة العمر، وذلك من

القول: ﴿ثم يمتكم فيه يقضى أجل مسمى﴾ وذلك أن قضاء الأجل، واستيفاء مدة العمر، يتجلى كل منهما في وقت إجابة النهار، أو سلبية الليل عن حركتهما. إن كلا من الليل والنهار في وقت قضاء الأجل. ووراء ذلك صفات ثلاثة صحان نبهت عليها: «ثم» انقضاء الأجل، والرجوع إلى الله تعالى، وإنباء الخلائق بما عملوا. إن انقضاء الأجل في هذه الحياة الأولى، وإن الرجوع إلى الله تعالى والإنباء بما عملنا في الحياة الأخرى.

فما أعظم ذكر العطف ثم، وما أعظم حذفه.

ويتبين مما سبق أن جملة: ﴿جرحتم﴾ تشتمل على معنيين اثنين، أو كلمتين اثنتين، من كلمة معنى الكسب والعمل، ومن كلمة أخرى معنى شق الجلد وإسالة الدم، وكأن المعنيين متساويان، وكأنهما يقعان على الأعراف، وكأن هذا الموضع هو الموضع الوحيد من المواضع الأربعة التي جاء فيها هذا المعنى في القرآن، وكأنه هو الموضع الوحيد الذي يتجلى فيه المعنيان على الأعراف. أما المواضع الباقية الأخرى فتتجلى إحدى كلمتي المعنى على الأخرى بوضوح ساطع. فإن الموضع الثاني من المواضع الأربعة.

ب - تأتي هذه المواضع الأربعة من القرآن الكريم التي جاء فيها استعمال مادة "حرح" في سورة الجاثية، من الآية الكريمة الحادية والعشرين. قال تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم. ساء ما يحكمون﴾ وهذه الآية الكريمة من سورة الجاثية تذكرنا بالآية الكريمة الرابعة من سورة العنكبوت. قال تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا. ساء ما يحكمون﴾

ونبدأ كعادتنا بتبيين المعنى اللغوي لما يحتاج التبيين من الألفاظ.

أم حسب: أم ظن (١)

الذين اجترحوا السيئات: الذين عملوا السيئات وكسبوها (٢)

سواء محياهم ومماتهم: سواء خبر مقدم. محياهم: مبتدأ مؤخر (٣) وسواء: مصدر (٤) والمحيا: مفعل من الحياة (٥) والحياة: نقيض الموت (٦) والممات: الموت، وهو ضد الحياة (٧)

(١) تفسير الطبري ٢٥/٨٩

(٢) تفسير ابن كثير ٧/٢٥٢

(٣) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٢١/٣٩٢

(٤) لسان العرب: "سوا"

(٥) لسان العرب: "حيا"

(٦) لسان العرب: "حيا"

(٧) انظر لسان العرب: "موت"

ساء ما يحكمون : ساء : ما ض للذم (١) . بحذف
بئس (٢) ما : حرف مصدري ، والمخصوص مقدر (٣)
أي بئس حكمًا حكمهم هذا (٤)

وبذلك يكون معنى الآية الكريمة ، والله تعالى
أعلم ، كما يلي : أم ظن الذين عملوا السيئات وكسبوها
أن نجعلهم من الجنة كالذين آمنوا بالله تعالى ، وصدقوا
رسوله صلى الله عليه وسلم وعملوا بهدي القرآن الكريم
وهدي سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفعلوا
الصالحات ، أم حسبوا أنه تستوي بالمؤمنين حياة الكافرين ومماتهم
وعملهم السيئات ، وانقسامهم الموبقات . كيف يستوي
الفريقان في الحياة الأولى وفي الآخرة ، وكيف يكون
المسلمون كالمجرمين ، وكيف يكون ثواب المؤمنين
وعقاب المجرمين سواء بينما التعادل متنافيان .
بئس حكم الذين اجترحوا السيئات حكمًا ، إذ
يستوون بين المسلمين والكافرين ، المتقين والفاسقين .
إن مصير المؤمنين الذين يعملون الصالحات جنات النعيم ،
وإن مصير الكافرين الذين يعملون السيئات نار الجحيم .
ويلاحظ أن القول في الآية الكريمة : بل أم
حسبت الذين اجترحوا السيئات ، أنه يشتمل على

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/٣٩٢
(٢) تفسير الطبري ٢٥/٩٠
(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١/٣٩
(٤) الجلالين .

جملة: ﴿اجترحوا﴾ بمعنى عملوا واكتسبوا. ولكن
جملة: ﴿اجترحوا﴾ تشتمل على جرح الجلد وإسالة
الدم بأكثر من اشتمالها على معنى العمل والكسب؛
ولذلك يلاحظ أن الجملة تنطبق على اجتراح الكافرين
السيئات، وذلك بجرح الجلد وإسالة الدم وعمل
السيئات والشرور. وبذلك يتبين أن جملة
﴿اجترحوا﴾ التي تفيد من كفة معنى العمل والكسب
وتفيد من كفة أخرى معنى جرح الجلد وإسالة الدم،
يتبين أن حظ الكفة الأخرى، من جرح الجلد
وإسالة الدم هو الموغور وهو الراجح. والله
تعالى أعلم.

جـ وثالث هذه المواضع الأربعة المتعلقة بمادة: "جرح" في القرآن الكريم يتعلق بالآية الكريمة الرابعة من سورة المائدة المدنية الكريمة. ومما يتصل بهذا الموضع الثالث فإنه جاء فيه لفظ: ﴿مكلبين﴾ وهو من مادة: ﴿كلب﴾ وذكرت معناه أننا في هذا الموضع من الدراسة سوف ندرس المادتين معًا، مادة: ﴿جرح﴾ ومادة: ﴿كلب﴾ خاصة. وأن الآية الكريمة من سورة المائدة تربط بين اللفظتين ربطًا قويًا. وهذه هي الآية الكريمة الرابعة من سورة المائدة الكريمة. قال تعالى: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله. إن الله سريع الحساب﴾

ومن الواضح أن الآية الكريمة تشتمل على سؤال واحد من الأسئلة القليلة التي سأل عنها الصحابة رضوان الله تعالى عليهم رسول الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم. وهذا السؤال يتعلق كسائر الأسئلة بالأحكام. وهذا السؤال يتعلق بما يحل أكلهم له مما يصيدون. والمعروف أن سورة المائدة فيها الكثير من الأحكام، ومن هذه الأحكام ما يتعلق بالصيد، وسورة المائدة من آخر القرآن نزولًا حتى قال ابن عباس والحسن وغيرهما إنه لا منسوخ فيها (١)

(١) انظر تفسير القرطبي ٣٤٧/٦

وقد تضمنت سورة المائدة الكريمة ثماني عشرة فريضة لم يبينها في غيرها (١)

وآخرنا على منهجنا فإننا نبدأ بما يحتاج إليه بعض الألفاظ إلى تبيين، علمًا بأننا سبق أن بينا ما يحتاج إلى تبيين لزوم بشأن لفظ: "الجوارح" وسنذكر ما يحتاج هنا إلى مزيد تبيين، بإذن الله تعالى.

يسألونك ماذا أحل لهم: يسألونك يا محمد عما أحل الله تعالى لهم من الصيد. فقد ذكر ابن كثير في تفسيره (٢) ما جاء في الحديث النبوي الشريف عن سعيد بن جبير أن عديّ بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين قالا يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، وإن كلاب آل ذريح وآل أبي جويرية تأخذ البقر والحمر والظباء والضب، فمنه ما ندرك ذكاته (٣)، ومنه ما يقتل فلا ندرك ذكاته، وقد حرم الله الميتة. فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت: يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات، يعني الذبائح، وما علمتم من الجوارح، يعني وصيد ما علمتم من الجوارح، وهي الكواسب من الكلاب وسباع الطير (٤)

وبين البين أن السؤال عن الصيد في حين يشمل الجواب عن الآية الكريمة الحديث عن الصيد وغير الصيد.

---

(١) البحر المحيط ٣/ ٤١١

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨

(٣) الذكاة: الذبح. مفردات الراغب الأصفهاني: ذكا ١/ ٢٣٩

(٤) انظر هنا اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢/ ٢٦٥-٢٦٧ الأحاديث ١٢٥٤-١٢٥٩

وما علمتم من الجوارح: وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباهها (١)
والجوارح: اكتواسب من سباع البهائم والطير، سميت جوارح لجرحها لأربابها وكسبها إياهم أقواتهم من الصيد. يقال منه: جرح فلان لأهله خيرا إذا اكتسب لهم خيرا، وفلان جارحة أهله يعني بذلك كاسبهم (٢)
ومكلبين: المكلب والكلاب: الذي يعلم الكلاب (٣)
ومكلبين حال من كلب الكلب بالتشديد، أي أرسله على الصيد. والحكمة من الجمهور أن التصييد بالطيور كالتصييد بالكلاب، لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب فلا فرق، وهو مذهب أئمة الأربعة وغيرهم (٤) وبسبب مهارة الكلب من الاصطياد وشدة ملازمته للعربي كان لفظ الكلب يطلق على كل سبع عقور (٥)
والمكلب: الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد. وفي حديث الصيد: إني أرسل كلابا مكلبة، فأفتني في صيدها: المكلبة المسلطة على الصيد المعلمة بالاصطياد التي قد ضريت به.
والمكلب بالكسر: صاحبها، والذي يصطادها (٦)

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٩
(٢) تفسير الطبري ٦/٥٧
(٣) مفردات الراغب الأصفهاني: "كلب" ٢/٥٦٥
(٤) تفسير ابن كثير ٣/٢٩
(٥) لسان العرب: "كلب"
(٦) لسان العرب: "كلب"